مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

تسليم سميائيّ :

النَّصُّ الأَدَبِيُّ وَالقَارِئُ وَتَنْظِيْمُ التَّجْرِبَةِ السِّيْمِيَائِيَّةِ

عبد اللَّطيف الدادسيّ [١]

١ جامعة مولاي إسماعيل/ الكُلِّيَّة متعدِّدة التَّخصُّصات / قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها، المغرب؛

dadsiabdeltif@gmail.com

دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / مُدرِّس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤ /٧ /١	٢٠٢٤ /٧ /٢٠	٢٠٢٤ /١٢ /٣١

المجلـــد (٢٠) العـــدد (٣٢)
جُمَادَى الآخرة ١٤٤٦هـ . كَانُون الأوَّل ٢٠٢٤ م

DOI:
10.55568/t.v20i32.161-182

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

إنَّ العلاقة الَّتي تربط النَّصَّ الأدبيّ بالقارئ هي علاقة تقوم على إجراء تجربة سيميائيَّة يكون مرامُها توليد معنى لهذا النصِّ. كما أنَّ المعنى الَّذي يمكن توليده من النصِّ الأدبيِّ من طرف القارئ لا يمكن التكهُّن بحقيقته، وذلك لأنَّ القرَّاء متعدِّدون وزمن التأويل وظرفه متغيران كما أنَّ النصَّ يعرف تغيُّرًا، لكن إذا كنَّا نؤمن أنَّ القارئ له معنًى خاصّ به يمكنه أن يولِّده من النصِّ فهل هذا يعني أنَّ القارئ حرٌّ في عمليَّة التأويل؟ وإذا سلَّمنا بحرِّيَّة التأويل فماذا يمكن القول بخصوص إمكانيَّة توليد معنًى قائم على فوضويَّة التأويل، ومن ثمَّ يكون المعنى مرفوضًا؟ إنَّنا هنا نستشعر الحاجة إلى تنظيم التجربة السيميائيَّة حتَّى تكون هناك معاني متعدِّدة للنصِّ الواحد لكنَّها منظَّمة، ومن ثمَّ مقبولة.

إنَّ تعدُّديَّة التأويل الَّتي تُمليها الظروف الَّتي تعرفها التجربة السيميائيَّة أمر لا مفر منه، كما أنَّه إذا تبصَّرنا هذا الأمر مليًّا سنجد أنَّ التسليم به من شأنه أن يحفظ للقارئ حقَّه في أن يكون له معنًى يعتقد بصوابه، زيادة على ذلك فإنَّ القبول بأحادية معنى النصِّ الأدبيِّ لا يعني سوى التبشير بانحطاط الثقافة وإقبار الرغبة في تنويع التفكير وتجديده.

إنَّ السؤال الَّذي يحبذ اقتراحه هنا هو: كيف يمكننا تنظيم التجربة السيميائيَّة الَّتي يقيِّمها القارئ على مستوى النصِّ الأدبيّ؟ إنَّ هذا السؤال يرتبط بمقولتين اثنتين هما: النظام والفوضى. هاتان المقولتان تحيلاننا إلى علم السميائيَّات الثقافيَّة الَّذي يتَّخذ من الثقافة موضوعًا للدراسة،

Literary Text, Reader, and Semiotic Experience Formation

Abdul Latif Al-Dadsi [1]

1 Moulay Ismail University / Faculty of Poly Disciplines / Department of Arabic and Literature, Morocco; dadsiabdeltif@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
1/7/2024	20/7/2024	31/12/2024

DOI: 10.55568/t.v20i32.161-182

Volume (**20**) Jumada Alakhirah 1446 AH.
Issue (**32**) December 2024 AD

CC BY NC

Abstract:

Relationship that ties literary text to reader is based on a semiotic experience to generate the meaning for the text. However, the meaning that can be generated by the reader is beyond prediction. As much as the readers are diverse, the time and context of interpretation are variable. Furthermore, the text itself is subject to change. But if we believe that the reader could generate their own meaning from the text, does this mean that the reader is free in the process of interpretation? If we acknowledge the freedom of interpretation, what can we say about the possibility of generating meaning based on chaotic interpretation, which would then set the meaning unacceptable?

Here, we sense the need to organize the semiotic experience so that the multiple meanings of a single text are structured and acceptable. The multiplicity of interpretations imposed by the circumstances surrounding the semiotic experience is inevitable. With a close examination, accepting this fact preserves the right of the reader to hold onto a meaning they believe to be correct. Moreover, accepting the idea of a singular meaning for the literary text would only promote cultural decline and suppress the desire to diversify and renew thinking.

A question to be stirred here is: How could we organize the semiotic experience, the reader engages in with the literary text? This question is

linked to two concepts: order and chaos. These two concepts refer us to the field of cultural semiotics, which takes culture as its subject of study and, at the same time, as a reference for interpretation and its organization. Cultural semiotics is shaped by figures such as Yuri Lotman, Boris Uspensky, Umberto Eco, and Clifford Geertz.

Encyclopaedia, as a tool proposed by Umberto Eco to organize the semiotic experience, could only function as a source of interpretive rules. When Eco speaks about the encyclopaedia, he refers to the culture that organizes behaviour and thought in society. If we acknowledge the role of culture in organizing the semiotic experience, how does culture fulfil this role? Are there mechanisms that collaborate with it in performing this role?

Keywords: interpretation, cultural semiotics, order, chaos, reader, text.

كما يتَّخذ منها مرجعًا للتأويل وتنظيمه في الآن نفسه. وقد عرفت السميائيَّات الثقافيَّة أعلامًا من قبيل يوري لوتمان وبوريس أوزبنسكي وأمبيرتو إيكو وكليفورد غيرتز. فمن خلال هذا العِلم يمكن معالجة إشكاليَّة هذا البحث.

إنَّ الموسوعة بما هي آليَّة اقترحها أمبيرتو إيكو لتنظيم التجربة السيميائيَّة لا يمكن أن تشتغل إلَّا بوصفها مصدرًا لقواعد التأويل، كما أنَّ إيكو حينما يتحدَّث عن الموسوعة فإنَّه يتحدَّث عن الثقافة الَّتي تنظِّم السلوك والأفكار في المجتمع، فإذا سلَّمنا بدور الثقافة في تنظيم التجربة السيميائيَّة فكيف تقوم الثقافة بهذا الدور؟ وهل هناك آليَّات تتعاضد معها في أداء هذا الدور؟

الكلمات المفتاحية: التأويل، السميائيَّات الثقافيَّة، النظام، الفوضى، القارئ، النصّ.

المقدِّمة

إنَّ ممَّا نعتقد به مسبقًا هو أنَّ النصَّ الأدبيَّ ينفتح دومًا على المعاني غير المحدودة، والَّتي يمكن للقارئ أن يقترحها على هذا النصِّ، سواء أكانت هذه المعاني منطقيَّة أم غير منطقيَّة وفقًا لقانون تأويلي معيَّن. وهكذا نكون أمام الفكرة الَّتي مفادها أنَّ عمليَّة تنظيم التجربة السيميائيَّة مسكونة بفكرة القانون بحيث تتمّ مناهضة التأويلات الفوضويَّة، الشيء الَّذي يجعلنا نراهن على توليد معانٍ متعدِّدة، لكن مقبولة في حدود القوانين الَّتي يفرضها كلٌّ من النصِّ والقارئ. هكذا إذن أمكن للنصوص أن "تصبح المكان الَّذي يعيش فيه المؤلِّفون، ويتفاوض فيه القرَّاء باستمرار حول تأويلاتهم من ناحية، ويسعى المؤلِّفون إلى التحكُّم في تأويلات القرَّاء من ناحية أخرى، فالقرَّاء يؤوِّلون النصوص حسب احتياجاتهم. ومع ذلك، فإنَّ بعض القيود تحدّ مدى التأويلات الَّتي يسمح بها النصُّ."[١] وانطلاقًا من هذا الاستهلال الأخير تتحدَّد أمامنا مجموعة من الكلمات المفاتيح، والَّتي ترتبط بجوهر عمليَّة تنظيم التجربة السيميائيَّة، ونجد منها: التفاوض والتحكُّم والحاجة والقيود... وتبعًا لما سبق ذكره، يمكن أن نشير إلى الإشكاليَّة الَّتي يروم هذا المبحث معالجتها، والَّتي مضمونها: كيف يمكن لكلٍّ من النصِّ والقارئ أن ينظِّما التجربة السيميائيَّة بلحاظ أنَّ لكلٍّ طرف منهما خصوصيَّته المعرفيَّة؟ ولمعالجة هذا المبحث، فقد استندنا إلى فرضيَّات هي:

- إنَّ تنظيم التجربة السيميائيَّة عمليَّة ليست منوطة بالقارئ وحده، بل تشمل النصَّ كذلك.
- ينطوي عمل القارئ والنصِّ على مجموعة من القواعد التي تؤكِّد وظيفتها التنظيميَّة.
- الثقافة هي مصدر القواعد التنظيميَّة التي يتيحها كلٌّ من النصِّ والقارئ لإعمال التجربة السيميائيَّة.

أمَّا بالنسبة للأهداف المتوخاة من هذا المبحث، والَّتي من شأنها ضبط حدود البحث، فقد حدَّدنا أهدافًا هي الآتي:

- البحث في إمكانيَّة اتِّخاذ النصّ الأدبيّ موضوعًا سميائيًّا.
- التفكير في الطبيعة السيميائيَّة لكلٍّ من النصِّ الأدبيِّ والقارئ.

١ Federico Bellentanti and Mario Panico, "Pour Une Approche Sémiotique Des Monuments et Des Mémoriaux," Cygne Noir, En Dialogue Avec l'histoire, no. 6 (2018): 5_ 6.

- تجديد النظر في مسألة أحاديَّة المعنى وتعدُّديَّته.
- دراسة الكيفيَّة الَّتي تتَّصل من خلالها الثقافة بالنصِّ الأدبيّ والقارئ وهي تحاول أن تخضع التجربة السيميائيَّة للنظام وتبعدها عن الفوضى.

١ .النصّ الأدبيّ موضوعًا سميائيًّا

إنَّ النصَّ الأدبيَّ لا وجود له إلَّا إذ وُجِدَ القارئ الَّذي يستطيع أن يكتشف ما يعادل علامات النصِّ من معانٍ، لأنَّ النَّصَّ، حسب يوري لوتمان، غير موجود حتَّى يوجد فعل التواصل، وينشأ في عمليَّة الإرسال. فالحركة الأولى للنصِّ هي تفعيله: إنَّ النصَّ موجود في حال إمكان. (...) فالتحويل السميائيُّ للنصِّ يحدث على الحدود بين الذاكرة الجماعيَّة للثقافة والوعي الفردي.[٢] يظهر أن يوري لوتمان يؤكِّد أنَّ القارئ يفكِّر في النصِّ في حدود ما تتشكَّل منه الذاكرة الثقافيَّة للمجتمع الَّذي ينتمي إليه، كما نفهم أنَّ النصَّ يكون نصًّا بعد تأويله، فإنجاز عمليَّة التأويل أمر يمنح للنصِّ اعترافًا بأنَّه نصٌّ، فقد يتصادف القارئ مع (نصّ)، وقد يحدث أنَّ هذا النصّ لم يجد طريقه إلى التأويل من طرف القارئ بسبب غرابة علاماته، حيث يصبح القارئ جاهلًا بمعنى تلك العلامات، وذلك لأنَّ النصَّ لا يحتوي على ما يتقاسمه مع القارئ في الذاكرة الثقافيَّة لهذا الأخير.

إنَّنا هنا لا نكون أمام نصٍّ بالمعنى الحقيقيّ للنصِّ حسب ما أشار يوري لوتمان، ولكن نكون أمام شيء عاجز عن أداء وظيفته الإبلاغيَّة، إنَّ النصَّ والعلامة سواء، بحيث قد وضعا ليقولا شيئًا معيَّنًا، وبتعبير إدوارد سابير: "إنَّ كلَّ نمط ثقافيٍّ وكلَّ فعل سلوكيٍّ اجتماعيٍّ يتضمَّن نقلًا للمعلومات." [٣] فالنصُّ في أصله شبكة من العلامات المرتبطة فيما بينها وفق علاقات محدَّدة. ذلك أنَّ علَّة وجود العلامة ترجع إلى أنَّها "تستخدم من أجل نقل معلومات، ومن أجل قول شيء ما، أو الإشارة إلى شيء ما يعرفه شخص ما يريد أن يشاطره الآخر هذه المعرفة."[٤] نستنتج من خلال وظيفة العلامة أنَّ النصَّ، لا وجود له من دون وجود قارئ مؤول يملك القدرة على اقتراح معنى للنصِّ.

---

٢ Y.M Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, ed. Ann Shukman (Britain: Indiana University Press, LB. Tauris, 1990), 69.

٣ Roman Jakobson, Selected Writings Word and Language (Paris: Mouton The Hague, 1971), 698.

٤ إيكو، أمبرطو. العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة. سعيد بنكراد، ط٢ (الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠١٠)، ٤٧.

وعليه، فإذا تمكَّن النصُّ من جعل القارئ ينتج فكرة عنه فإنَّنا في هذه اللَّحظة يمكن أن نتحدَّث عن بداية تنظيم التجربة السيميائيَّة، فعجز النصِّ عن تمكين القارئ من تأويله سيفقده قيمته من منظور القارئ، فهو إمَّا أن يقرأ فيفهم، وإمَّا أن يقرأ ولا يفهم، ومن ثُمَّ تغدو المادَّة المقروءة غير ذات جدوى، فتحقُّق الفهم يعطي للنصِّ قيمته. لكن إذا كان النصُّ قادرًا على جعل القارئ يقترح معنى له فهل هذا المعنى سيكون هو نفسه إذا أعاد القارئ تجربته السيميائيَّة مع النصِّ مرَّة أخرى؟ ولأنَّ حقيقة القارئ مرتبطة بالخبرة السيميائيَّة فإنَّه بإمكاننا الافتراض أنَّ القارئ كائن متغيِّر. وإذا تأمَّلنا النَّصَّ سنجد أنَّه يكشف عن ذاته على نحو متغيِّر دومًا بحسب الحاجات الاجتماعيَّة الَّتي يطلبها القرَّاء من النصِّ من خلال التفاعل التأويليّ. فنحن نفهم من النصِّ ما نرغب بفهمه، ونترك الباقي إلى زمن آخر.

٢. النصُّ الأدبيّ والقارئ بوصفهما وحدتين سميائيَّتين متغيِّرتين:

لا أحد في اعتقادنا يمكنه أن يشكِّك في أنَّ حدث التغيُّر حدثٌ يتمُّ إدراكه بفعل الزمن، فنحن ندرك تغيُّر شيء ما حينما نكون عارفين بحاله كيف كان، ثُمَّ كيف أصبح. وفقًا لهذه الفكرة يمكننا التساؤل: هل يمكن لكلٍّ من النصِّ والقارئ أن يعيشا حال تغيّر ويكتسبا أحوالًا مختلفة عبر الزمن؟ إنَّ هذا السؤال مفاده هو أنَّ معنى النصِّ يتغيَّر بتغيُّر عمليَّات التأويل وتعاقبها زمنيًّا، لذلك فتغيُّر الزمن يؤثِّر على كلٍّ من النصِّ والقارئ، فللنصِّ "حياته الخاصَّة، وإمكانيَّاته الذاتيَّة. وهو بهذه الإمكانيَّات وتلك الحياة يستطيع في كلِّ فترة من فترات التلقّي أن يستفزَّ القارئ ويثيره. وهو ما يؤدِّي بالضرورة إلى إعادة القراءة وتكريرها."[٥] فخبرة القارئ بالتأويل تقْوَى مع الزمن، وقد تضعف، والنصُّ يصير مغتربًا عن القارئ كلَّما تباعد زمن التأويل عن زمن كتابة النصِّ. لقد سبق لبول ريكور أن تطرَّق للاغتراب والتباعد الثقافيّين والزمانيّين بين النصِّ والتأويل حيث إنَّ الولوج لدوال النصوص وتأويلها يشترط التغلُّب على "التباعد والبعد الَّذي يفصل بين العصر الثقافيّ الَّذي تَمَّ، والَّذي ينتمي إليه النصُّ، وبين المؤول نفسه. فإذا تجاوز المفسّر هذا البعد، وأصبح معاصرًا للنصِّ، فإنَّه

٥ بلمليح، إدريس. القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، ط١ (دار توبقال، ٢٠٠٠)، ٢٥.

يستطيع أن يمتلك المعنى."[٦] فالانتصار على المباعدة بين زمن كتابة النصِّ وزمن التأويل، يقتضي افتعال "صراع ثقافيّ بين القراءة والكتابة، تتمُّ من خلاله المراهنة على امتلاك معنى النصِّ؛ امتلاك ذلك الغريب، وجعله ذا انتماء، وإعطائه حضورًا راهنيًّا يجعل النصَّ حيًّا في زمن القراءة. ومن ثمَّ تكون الممارسة التأويليَّة خاضعة لفتح الحوار بين كلٍّ من أنطولوجيا الفهم الخاصَّة بالذات المؤولة وبين كلِّ الأنساق الموجودة خارج النصِّ، والَّتي يحيل عليها النصُّ ويتحرَّك بها."[٧] إنَّ المواجهة الثقافيَّة بين القارئ والنصِّ تجعل القارئ يتبنَّى المحتوى الثقافيّ للنصِّ بحيث يتأثَّر بالمحتوى المعرفيّ لثقافة النصِّ، وهكذا تتَّسع خبرة القارئ بتأويل النصوص. وفي الآن نفسه يجد النصَّ، قيد التأويل، ذاته متأثِّرًا بثقافة القارئ، ومن ثمَّ يتجاوز النصُّ زمنه الثقافيّ القديم ليلحق بزمن ثقافيّ جديد.

وعليه، يمكن النظر إلى تغيُّر القارئ والنصِّ على أنَّه معطًى ثقافيّ بطبيعته، عَدًّا أنَّ خبرة الإنسان بحياته الاجتماعيَّة تتجدَّد مع الزمن، وتكون متوسِّعة لتشمل أمورًا كثيرة، وبتعبير يوري لوتمان "إنَّ مجموع اللُّغات في مجال ثقافيّ نشيط متغيِّرة باستمرار."[٨] إنَّ المباعدة بين زمن كتابة النصِّ وزمن التأويل الَّذي يكون مفتوحًا على زمن الحاضر وزمن المستقبل تجعلنا نتساءل، هل يمكن لهذه المباعدة أن تجعل القارئ غير كفءٍ في تأويل النصِّ؟ إنَّ للإنسان ذاكرة تحفظ ما اختبره من تجارب ومعارف قليلة أو كثيرة، لكن لا أحد يعلم حدود هذه الخبرة، ولذلك فإنَّه بقدر ما كانت سعة خبرة القارئ كبيرة بقدر ما يمكنه أن يحوِّل التباعد إلى تقارب، ويصير تأويل النصِّ ممكنا، فما إن يتحوَّل القارئ من الضعف إلى القوَّة في خبرته أو العكس فإنَّه يصير، كما عبَّر يوري لوتمان، "وحدة سيميائيَّة متغيِّرة دومًا، وقادرة على ضبط النصِّ."[٩] فما أشار إليه لوتمان بخصوص ضبط النصِّ هو أمر يتعلَّق بجعل تأويل النصِّ خاضعًا لمجموعة من الحدود الَّتي تحفظه من أن يكون "تأويلًا مفرطًا [١٠] "كما يسمِّي أمبرتو

٦ ريكور، بول. "الوجود والتأويل،" ترجمة. منذر عياشي، مجلة ثقافات، العدد٢٠٦. ٢١٤: (٢٠٠٢).

٧ الدادسي، عبد اللطيف. تجليات إنتاج المعنى المزدوج عند بول ريكور، كتاب جماعي: التأويل بين الفلسفة والأدب، ط١ (تطوان: منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٩)، ٢١٨.

٨ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 124.

٩ Lotman, 64.

١٠ إيكو، أمبرطو . التأويل والتأويل المفرط، ترجمة. ناصر الحلواني، ط١ (مركز الانماء الحضاري، ٢٠٠٩).

إيكو هذا النوع من التأويل. وعليه، فإذا كان كلٌّ من النصِّ والقارئ وحدتين سميائيَّتين متغيِّرتين فهل يمكن أن نرى الأمر نفسه بخصوص المعنى حيث يكون متغيِّرًا ومن ثَمَّ أمكنه الاتِّصاف بالتعدُّديَّة؟

٣.تأويل النصِّ الأدبيّ بين أحاديَّة المعنى وتعدُّديَّته

كتب أمبرتو إيكو: "النصُّ كونٌ مفتوح حيث يمكن للمؤوِّل أن يكتشف روابط لا حدَّ لها."[١١] إنَّ إيكو يحدِّد لنا صفة للنصِّ وهي الانفتاح الدلالّي، وهي صفة تلغي صفة أخرى تتمثَّل في الانغلاق الدلاليّ أو المعنى الأحاديّ. كما تلغي ما أسماه أمبرتو إيكو بحقوق النصِّ وتثبت بالمقابل حقوق المؤوّلين. يقول: "كنت أدرس الجدل بين حقوق النصوص وحقوق مؤوليهم. ولديَ الآن اعتقاد أنَّ هناك تركيزًا في العقود الأخيرة على حقوق المؤوِّلين وحدهم."[١٢] ولنفترض أنَّ النصَّ يحيل على ما هو واقعيّ وحقيقيّ فسيكون القارئ معتقدًا أنَّ المعنى الَّذي سيقترحه على النصِّ يجب أن يكون أحاديًّا، ولا يجب أن يتعدَّد أو يكون احتماليًّا، لكن بما أنَّ النصَّ يحيل على ما هو تخييليّ فإنَّ المعنى يكون احتماليًّا، لأنَّ تفاعل القارئ مع النصِّ هو "تفاعل يُؤخذ على أنَّه تخييليٌّ لا تمثيليٌّ. فالقارئ يعي طبيعة النصِّ التخييليَّة ويتفاعل معه على هذا الأساس، ولكن الجانب التخييليّ هذا ليس دلالة على انغلاقيَّة النصِّ، بل على العكس، إنَّه إشارة خفيَّة إلى جانبه المنفتح على عوالم متعدِّدة ومختلفة، ولكنَّها جدّ متداخلة."[١٣]

إضافة لما سبق، تسعفنا إشارة أمبرتو إيكو إلى الروابط الموجودة بين النصِّ وخارجه، في استخلاص فكرة مفادها أنَّ قدرة القارئ على كشف رابط بين النصِّ ونصٍّ آخر، أو بين فكرة نصِّيَّة وفكرة توجد خارج النصِّ، يجعل من النصِّ، قيد التأويل، نصًّا قابلًا للتأويل. وهنا نكون قد ظفرنا بإجابة عن سؤالين قد وقرا سلفًا في ذهننا: متى يكون النصُّ قابلًا للتأويل من طرف القارئ؟ هل هناك نصوص غير قابلة للتأويل؟ ويمكن أن نفهم حقيقة الروابط الَّتي يكشف عنها القارئ من خلال ما قاله يوري لوتمان: "إنَّ

---

١١ Eco Umberto, Les Limites de l'interprétation, traduit de l'italien par. Myriem Bouzaher (Grasset & Fasquelle, 1992), 45.

١٢ إيكو، أمبرطو . اعترافات روائي ناشئ، ترجمة. سعيد بنكراد، ط٢ (المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤)، ٤٩.

١٣ الحميمة، عبد الله. "إشكالية القراءة من نظرية التلقي إلى التفكيكية،" مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد٢. ٤٦ : (٢٠١٥).

مجموع السياقات المحدَّدة للنصِّ تكسبه تأويله، كما أنَّها طريقة اندماجه، والَّتي يطلق عليها ذاكرة النصِّ. يعني هذا أنَّ الفضاء الَّذي تمَّ إنشاؤه بواسطة النصِّ حول نفسه يمكنه من الدخول في علاقة مع الذاكرة الثقافيَّة."[١٤]

وفي مقابل الإشارة الأخيرة، يمكن القول إنَّ عَجْزَ القارئ عن اكتشاف رابط معيَّن بين النصِّ وخارجه يجعل من النصِّ نصًا غير قابل للتأويل، وبتعبير مُحَمَّد الدغموميّ: "إنَّ النصَّ دائمًا يبتعد عنَّا حين لا تتَّسع دائرة المشترك."[١٥] إنَّ المشترك ههنا يعني المعرفة الَّتي يتقاسمها النصُّ مع القارئ، فمعنى ابتعاد النصِّ عن القارئ هو أنَّ النصَّ إمَّا أنَّه مرتبط بثقافة أخرى أو أنَّه قديم من حيث مُعجمُهُ. "إنَّ النصَّ الَّذي لا يمكن التنبؤ به، هو نصٌّ لا جدوى منه على الإطلاق. لكن قد يبدو العكس صحيحًا؛ فالنصُّ الَّذي لا يمكن التنبؤ به على الإطلاق يمكن بالمقابل أن يفقد قيمته؛ ويفقد نصِّيَّته. ويمكن للمتلقِّي أن يعتبره هامشيًّا جدًا أو حتَّى لا يعترف به كنصٍّ على الإطلاق."[١٦]

إنَّ من خصائص النصِّ أنَّه "مرتبط بنصوص متشابهة أو مخالفة."[١٧] كما أنَّه لا يمكن له أن لا يرتبط بثقافة ما، "إذ ليس هناك نصوص مستقلَّة، وإنَّما نصوص يحدِّدها التاريخ وتحدِّده."[١٨] فالنصوص الَّتي يتشابه معها النصُّ قيد التأويل هي النصوص الَّتي يجب التوسُّل بها لتوليد معنى هذا النصِّ. لكن إذا ارتبط النصُّ قيد التأويل بنصوص مخالفة لما يملكه القارئ في موسوعته فهذا يعني أنَّه نصٌّ ليس من ثقافة هذا القارئ. لكن إذا كان النصُّ قيد التأويل مرتبطًا بثقافة القارئ، وكان هذا القارئ عاجزًا عن تأويله، فإنَّ هذا الأمر لا يعني سوى أنَّ القارئ لا يملك كفاية تأويليَّة. ذلك أنَّ "عملنا السميائيّ بصفتنا بشرًا هو تأويليٌّ: وذلك من خلال خلق اتِّصالات وبناء مجالات ومسارات للترابط المنطقيّ."[١٩] إنَّ هذه

١٤ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 18.

١٥ الدغمومي، محمد. تأويل النص الروائي / كتاب جماعي: من قضايا التلقي والتأويل، ط١ (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٤)، ٥٥.

١٦ بريمي، عبد الله. السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية، ط١ (الاردن: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٨)، ٩٠_ ٩١.

١٧ الدغمومي، تأويل النص الروائي / كتاب جماعي: من قضايا التلقي والتأويل، ٥٤.

١٨ أحمامة، لحسن. "التاريخية الجديدة والنص المخاتل ('البخلاء' نموذجا)،" مجلة النبوغ، العدد١. ٤٣: (٢٠١١).

١٩ Anna Maria Lorusso, Cultural Sémiotics for a Cultural Perspective in Semiotics. SEMIOTICS AND POPULAR CULTURE (Palagrave Macmillan, 2015), 124.

الاتِّصالات والمجالات والمسارات المرتبطة بالقارئ يفترضها المؤلِّف وهو يؤلِّف نصَّه، فهي مُوجِّهة له لحظة الإبداع؛ يعني أنَّ المؤلِّف يفترض الطريقة الَّتي يمكن للقارئ من خلالها أن يؤوِّل النصَّ. إنَّ الروابط الَّتي أشار إليها أمبرتو إيكو تجعل النصَّ يشير إلى ثقافة ما، ووفقها يتحقَّق فهمه وتأويله، وعمليَّة الإشارة هذه، تتم من خلال البحث عن النسق الَّذي يتشكَّل منه النصُّ، ذلك أنَّ عمليَّة البحث عن النسق تعدُّ "شرطًا أساسيًّا من شروط حياة النَّصِّ. إذ لا يمكن لنصٍّ معيَّن أو مجموعة من النصوص أن تحيا بمفردها. أي أنَّه بإمكانها أن تنعزل، فينبثق عن هذا الانعزال قارئُها التجريديّ. (...) إنَّها تظلُّ دائمًا معبِّرة عن أنظمتها وبنياتها المركزيَّة، تحيل على صاحبها وعلى عصرها."[٢٠]

لا أحد ينكر أنَّ مؤلِّف النصِّ قد كتب نصَّه وجعل علاماته منظَّمة، كما أنَّ وجودها في نسق معيَّن مرتبط بوضعها وفق طريقة محدَّدة لتقول شيئًا محدَّدًا. فهي موجودة على نحو ما لأنَّها تعادل فكرة موجودة في ذهن المؤلِّف. لا يجب أن نغفل أنَّ المؤلِّف يبني نصَّه الأدبيّ على نحو انتقائيّ، فهو يُحوِّل الواقع الفعليّ الَّذي يرتبط بعلاقات هي أساس وجوده، إلى واقع متخيَّل تملك عناصره علاقات متبادلة هي أساس وجودها في النصِّ. فالروائيّ وهو يستحضر الواقعة الإنسانيَّة يكون مشتغلًا عليها بصفتها علامة منفتحة على اللامتناهي، فحينما يثبِّت الروائيّ هذه الواقعة يكون قد حجر على معنى معيَّن من دون المعاني الأخرى الَّتي تتنافس وتتصارع على الدلالة. ونستحضر هنا إشارة لسعيد بنكراد مفادها أنَّ "التحقُّق النصِّيَّ المفرد ليس سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى (...) فمنطق النصِّ والبحث عن انسجام ممكن للكون النَّصِّيِّ يقودان السميوز إلى انتقاء دلالة والاحتفاظ بها وتفضيلها على دلالات أخرى. فالقول بأنَّ النصَّ يعالج هذا الموضوع أو ذلك لا يعني، قطعًا، ردّ هذا الكون النصِّيِّ إلى ثيمة دون غيرها، إنَّه يشير فقط إلى إمكانيَّة وجود انتقاء سياقيّ يقود الفعل التأويليّ إلى تحيين مسار تأويليّ بعينه، ويقوم بالدفع بمسارات أخرى إلى التراجع."[٢١] هكذا يمكن الاستخلاص إنَّ النصَّ هو تحقُّق تأويليّ متعالق مع قوانين تأويليَّة أنزلها المؤلِّف حتَّى يجعل نصَّه متمايزًا عن النصوص الأخرى، وحتَّى يكون هذا النصُّ منضبطًا لقوانين الكتابة في ثقافة المؤلِّف.

٢٠ بلمليح، القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، ٣٨.
٢١ بنكراد، سعيد. السميائيات والتأويل مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ط١ (الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥)، ٣٤.

لكن بمجرَّد ما يتحرَّر النصُّ من فعل الكتابة ويربط علاقته بفعل التأويل الَّذي يمارسه القارئ، يمكنه أن يدلَّ على مجموعة من المعاني الَّتي تختلف عن المعنى الَّذي أراده المؤلِّف. لكن أمبرتو إيكو ينبِّهنا إلى فكرة مفادها أنَّه "بإمكان النصوص أن تقول كلَّ شيء باستثناء ما يودُّ المؤلِّف التدليل عليه."[٢٢] وتفاعلًا معه يمكن القول: لماذا لا تقول النصوص ما قاله المؤلِّف؟ نقترح إجابة لهذا السؤال وهي أنَّنا أمام أمور ذهنيَّة بحيث إنَّ الإنسان يختلف مع غيره في طريقة معالجة المعلومات وتنظيمها، الشيء الَّذي يجعله يرى في النصِّ خلاف ما يراه غيره.

حينما أشار إيكو إلى قدرة النصوص على أن تقول كلَّ شيء إلَّا ما قاله المؤلِّف تولَّدت لدينا فكرة وهي أنَّ تأويل النصوص لا حدود له. لكن وجدنا إيكو يقول مرَّة أخرى إنَّه لا يجب على القرَّاء أن يحمِّلوا النَّصَّ ما لا يحتمل من المعاني. يقول إيكو: "بعد إنتاج النصِّ، من الممكن جعله يقول الكثير من الأشياء -في بعض الأحيان يقول عددًا من الأشياء لا حصر له - لكنَّه مستحيل - لجعله يقول ما لا يقوله. غالبًا ما تقول النصوص أكثر من هذا الَّذي معه مؤلِّفوها."[٢٣]

إنَّ تقويل النصِّ ما لا يقوله هو أمر يتَّصل من جهة أولى بحرِّيَّة القارئ في التأويل، ويتَّصل من جهة ثانية بتحرُّر النَّصِّ من المعنى الواحد. من هنا يمكن التساؤل هل هناك حدود لحرِّيَّة كلٍّ من النصِّ والقارئ؟ إنَّنا نؤمن بهذه الحرِّيَّة حتَّى لا يكون هناك غبن لحقِّ التأويل أو غبن لمعنى يمكن للنَّصِّ أن يشير إليه على حساب معنى نريد أن نقترحه على هذا النَّصِّ. يجد هذا الطرح ارتباطًا بما أشار إليه أمبرتو إيكو وهو يفكر في التأويل المفرط، يقول: "هل هناك حدود لما يمكن للنصِّ أن يتضمَّنه من معانٍ؟ هل تُعَدُّ مقاصد المؤلِّف مناسبة لتأسيس هذه الحدود؟ هل ينبغي لبعض القراءات أن تلغى بلحاظها تأويلًا مفرطًا؟"[٢٤] هكذا نستوعب أنَّ النصَّ منفتح، لكن هناك حدودًا لهذا الانفتاح.

٢٢ إيكو، أمبرطو. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة. سعيد بنكراد، ط٢ (الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤)، ٤٣.

٢٣ Umberto, Les Limites de l'interprétation, 86.

٢٤ إيكو، التأويل والتأويل المفرط، ٥.

وتفاعلًا مع ما تساءل حوله أمبرتو إيكو، نجد أنَّ التأويلَ هو إنتاجُ معرفة بما يمكن للنَّصِّ أن يدلَّ عليه، لكن إلى أيِّ حدٍّ يمكن اقتراح معانٍ تذهب مذهب مقصديَّة النَّصِّ الَّتي لا علم لنا بها ولكنَّنا نتوقَّعها؟ وبتعبير إدريس بلمليح: "إنَّ التأويل يفقد معقوليَّته ومقبوليَّته كلَّما توهَّم أنَّه مطلق وغيرُ مقيَّد وغيرُ مطالب بأن يلتزم بملاءمته للنَّصِّ المؤوَّل."[٢٥] كما يمكننا القول، بخصوص إمكانيَّة التوسُّل بمقاصد المؤلِّف لضبط التأويل وتسييج فضائه: إنَّ مقاصد المؤلِّف أو مقصديَّته كانت موجودة في اللَّحظة الَّتي كان المؤلِّف ينشئ نصَّه، وهي الَّتي كانت تكشف للمؤلِّف أنَّ هذا النَّصَّ ذو معنى، وهذا المعنى هو ما يجعل هذا النَّصَّ منعزلًا عن نصوص أخرى، بل ومنعزلًا عن مشاركة نصوص أخرى في معانيها الخاصَّة. يجب أن نتنبه إلى أنَّ المعنى الَّذي وجد من أجله النصُّ لم يعد موجودًا بعد نهاية الكتابة، إذ إنَّ هذا المعنى هو الَّذي حدَّد للنَّصِّ حدود كتابته، فالَّذي أصبح موجودًا هو قانون النَّصِّ، والَّذي نفهمه بالشكل المادِّيِّ للنَّصِّ، فلا شكَّ أنَّ المعنى الَّذي كان يعتقد به المؤلِّف في نصِّه سيتمُّ تعويضه بآخر، لكن هل سيكون واحدًا أم متعدِّدًا؟ وما دمنا لا نتحدَّث عن قارئ وإنَّما عن قرَّاء فإنَّنا مجبرون بالإيمان بتعدُّديَّة معنى النَّصِّ، ومن ثمَّ بحرِّيَّة التأويل. لكن ما دام للنَّصِّ قانون خالد هو جوهر وجوده، فإنَّ "حرِّيَّة التأويلات مشروطة ومحدَّدة بقانون النَّصِّ، ما دامت هذه الحرِّيَّة متضمِّنة في الآليَّة التوليديَّة للنَّصِّ ذاته. كما أنَّ هذه القيود الَّتي يفرضها النصُّ على مؤوِّليه، هي بمثابة قوانين وتسنينيات تحدِّد طبيعة إدراكه الدلاليّ."[٢٦]

وعلاقة بالتساؤل الَّذي أثاره أمبرتو إيكو بخصوص إمكانيَّة إلغاء القراءة المفرطة في تأويلها، يمكننا التساؤل معه: وفق أيّ منطق وأيّ مرجع وأيّ معيار نلغي هذه القراءة ونتبنَّى قراءة أخرى؟ تحضر في هذا السياق فكرة مضمونها أنَّ النصَّ وُجد ليدلَّ على معنًى معيَّن، وبدلالته هذه فهو يسعى إلى تحقيق وظيفة أو وظائف معيَّنة، يقول يوري لوتمان: "إنَّ وظيفة النصِّ هي وظيفة اجتماعيَّة؛ إنَّها قدرته على تلبية مطالب معيَّنة في المجتمع الَّذي نشأ فيه

٢٥ الدغمومي، تأويل النص الروائي / كتاب جماعي: من قضايا التلقي والتأويل، ٥٥.
٢٦ بريمي، عبد الله. مطاردة العلامات بحث في سميائيات شارل ساندرس بورس التأويلية الإنتاج والتلقي، ط١ (دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦)، ١٣١.

النصُّ، فإنَّ الوظيفة هي العلاقة بين النسق وتحقُّقه."[٢٧] إنَّ هذه الوظيفة النصِّيَّة لا وجود لها إلَّا بارتباط النصِّ مع نسق سميائيٍّ أو دلاليٍّ هو أساس وجوده وبنائه، والَّذي يعرفه أمبرتو إيكو بقوله: "إنَّ النسق الدلاليّ أو النسق الفرعيّ هو إحدى الطرائق الممكنة لإعطاء شكل للعالم."[٢٨] وعليه، يمكن التساؤل: ألا يمكن القول إنَّ أداء النصِّ لوظيفته قد يضعف بمجرَّد عدول القارئ عن المعاني الممكنة للنصِّ إلى المعاني البعيدة عن أفق النصِّ وممكناته التأويليَّة؟

إذا سلَّمنا بأنَّ النصِّ يجعل القارئ منضبطًا إلى القوانين الَّتي تعرض ذاتها فيه، فهل هذه القوانين النَّصِّيَّة كافية حتَّى نؤسِّس حدودًا لتأويل النَّصِّ؟ لنغادر التفكير في النصِّ إلى التفكير في القارئ ونتساءل هل هناك قوانين خارج نصِّيَّة يمكن للتأويل أن يخضع لها؟ الإجابة عن هذا السؤال ترتبط بسؤال مفاده: ماذا يوجد خارج النصِّ؟ لا يوجد خارج النصِّ سوى القارئ، والَّذي يشترك مع النَّصِّ في الاتِّصال بما يسمَّى الموسوعة، فالنَّصُّ ما كان بإمكانه أن يتحقَّق لولا الموسوعة الَّتي أمدَّت النَّصِّ، وهو فكرة لم تنمُ بعد، بمادَّة وقوانين التفكير، حسبانًا أنَّ النصَّ خاضع لنسق عام؛ ذلك "النسق الَّذي يدخل في إطاره نصٌّ من النصوص."[٢٩] كما أنَّه ما كان بإمكان القارئ أن يؤوِّل لولا الموسوعة ذاتها. إنَّ القارئ وهو يؤوِّل النصَّ يمكن أن يؤوِّل النصَّ كيفما شاء إذا لم تكن هناك قوانين (ناهيك عن القوانين النَّصِّيَّة)، لكن بما أنَّه يتَّصل بالموسوعة فإنَّه، حسب أمبرتو إيكو، ينضبط للقوانين الَّتي توفِّرها له هذه الموسوعة، يقول أمبرتو إيكو وهو يتحدَّث عن الموسوعة: "إنَّ الموسوعة هي الفرضيَّة التنظيميَّة، والَّتي تسمح لكلا المتحدِّثين معرفة القاموس المحلِّيِّ الَّذي يحتاجانه من أجل ضمان مكانة جيِّدة للتفاعل التواصليّ. فنجاح التفاعل في نهاية المطاف يثبت أنَّ فرضيَّتهما كانتا جيِّدتين."[٣٠] إذن فالموسوعة ليست مجموعة من المعلومات والمعارف فقط، بل إنَّها أيضًا آليَّة من شأنها تنظيم عمليَّة كتابة النصِّ وتأويله. إنَّ الموسوعة عند أمبرتو إيكو هي الوجه

٢٧ Yu M Lotman, Alexander M Piatigorsky, and Ann Shukman, "Text and Function," New Literary History 9, no. 2 (1978): 233.

٢٨ Umberto Eco, A Theory of Semiotics. (Eng, Trans (Indiana University Press, 1976), 289.

٢٩ بلمليح، القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، ٢٥.

٣٠ Umberto Eco, Semiotics and the Philosophy of Language, 1st ed. (Bloomington First Midland: Indiana University Press, 1986), 80.

المعرفيّ والتنظيميّ للثقافة، وذلك لأنَّها (أي الموسوعة) مُنتَجة بفعل "الاستعمال الخاصّ للُّغة، أي المواصفات الثقافيَّة الَّتي أنتجتها اللُّغة، وكذا تاريخ التأويلات السابقة الخاصَّة بمجموعة كبيرة من النصوص، بما في ذلك هذا النصّ الَّذي بين يديك."[٣١] هكذا نستوعب أنَّ الثقافة تفرض مواصفات تأويليَّة عبر الموسوعة الَّتي يستند إليها القارئ. وانطلاقًا ممَّا سبق وما توقّفنا عنده للتو، يمكننا القول إنَّ تأويل النصِّ يقتضي الجمع بين قوانين النصِّ وقوانين الثقافة. وهكذا يمكننا التساؤل: كيف يتمُّ العمل بقوانين الثقافة على مستوى عمليَّة التأويل؟

٤. الثقافة وإعمال القوانين التأويليَّة:

إنَّ كلَّ من يصادف مفهوم الثقافة سيستحضر في ذهنه المفهوم الَّذي اقترحه عالم الأنثروبولوجيا البريطانيّ إدوارد بارنات تايلور للثقافة، إن كان يعرفه، يقول إدوارد: "إنَّ ثقافة أو حضارة موضوعة في معناها الإثنولوجيّ الأكثر اتِّساعًا، هي هذا الكلُّ المركَّب الَّذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنّ والأخلاق والقانون والعادات وكلَّ القدرات والعادات الأخرى الَّتي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع."[٣٢] فهذا الكلُّ يعمل على أداء وظيفة وُجِد من أجلها، لكنَّه في الآن نفسه يعمل بصفته ممثِّلًا أو نائبًا تنظيميًّا عن الثقافة، حسبانًا أنَّ الثقافة ككل تُنظِّم العالم الإنسانيّ كما أشرنا في مقدِّمة الكتاب. إنَّ الكلَّ المركَّب الَّذي تحدَّث عنه إدوارد تايلور قابل للفهم إذ هو مجموعة من النصوص المعياريَّة الَّتي تتشكَّل منها الثقافة.[٣٣] وبهذا فهو يعبِّر عن فكرة خاصَّة وعلى نحو تنظيميٍّ محدَّد ومميَّز. أستحضر في هذا السياق، ما يشير إليه لحسن أحمامة وهو أنَّ المدرستين؛ التاريخانيَّة التقليديَّة ونظيرتها الجديدة تؤمنان بأنَّ الأدب جزء من السياق التاريخيّ العام للمجتمع، وبأنَّ النصوص الفرديَّة قادرة على امتصاص ذلك السياق والاحتفاظ به كجزء من بنيتها الداخليَّة، ومن ثُمَّ إعادة إنتاج من خلال عمليَّات القراءة المتكرِّرة."[٣٤] لذلك فالقارئ حينما يؤوِّل بنصوص الثقافة، والَّتي تُعَدُّ هي المحتوى الفكريّ للموسوعة، فإنَّه يدرك

٣١ إيكو، اعترافات روائي ناشئ، ٥٥.
٣٢ كوش، دنيس. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة. منير السعيداني، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧)، ٣٠.
٣٣ Yu. M Lotman, B A Uspensky, and George Mihaychuk, "On the Semiotic Mechanism of Culture," New Literary History 9, no. 2 (July 24, 1978): 218, https://doi.org/10.2307/468571.
٣٤ أحمامة، "التاريخية الجديدة والنص المخاتل ('البخلاء' نموذجا)،" ٤١.

معهـا معايـير التأويـل، لأنَّ معايـير تشـكِّل النصـوص الثقافيَّـة هـي نفسـها معايـير تأويلهـا، والَّتـي يعـبِّر عنهـا إدريـس بلمليـح بنسـق القـراءة؛ ذلـك "الجهـاز العـامّ الَّـذي تسـتند إليـه القـراءة، وعـت ذلـك أم لم تَعِـهِ، كـي تتنـاول النـصَّ ضمـن إطـاره."[٣٥]

إذا تأمَّلنـا قوانـين الثقافـة سـنفترض أنَّ الثقافـة لا يمكـن لهـا أن تتجـدَّد وتتبـدَّل، وذلـك لصيانـة القوانـين وإدامتهـا. ولأجـل التفكـير في هـذه الفرضيَّـة نتسـاءل: ألم تُـشرَّع القوانـين التأويليَّـة لتلبِّـي حاجـات اجتماعيَّـة مـن خـلال الوظيفـة الاجتماعيَّـة للنصـوص كـما يفهـم يـوري لوتمـان هـذه الوظيفـة؟[٣٦] إنَّنـا نؤمـن أن حاجـات المجتمـع تتجـدَّد وتتغـيَّر، ولـذا يمكـن لقوانـين التأويـل أن يعـاد فيهـا النظـر وتُراجَـعَ، ومـن ثَـمَّ يمكـن تغييرهـا. ووفقًـا لميشـيل فوكـو "فـإنَّ كلَّ حقبـة في تاريـخ الثقافـة الإنسـانيَّة تنتِـج منظومتهـا القيميَّـة والمعياريَّـة والمفاهيميَّـة الخاصَّـة."[٣٧] ولكـي تسـتوعب فكـرة تغيـير قوانـين التأويـل يمكـن الوقـوف عـلى مـا قالـه كلٌّ مـن يـوري لوتمـان وبوريـس أوزبنسـكي: "إنَّ أحـد أشـكال النضـال الاجتماعـيّ في مجـال الثقافـة هـو المطلـب الإلزامـيّ لنسـيان جوانـب معيَّنـة مـن التجربـة التاريخيَّـة. (...) فالمجتمـع يطالـب بنسـيان النصـوص الَّتـي لا تصلـح لتنظيـم الثقافـة."[٣٨] ذلـك أنَّ قوانـين التأويـل تحيـا داخـل النصـوص، ولـذا فنسـيان النصـوص والتخلِّي عنهـا هـو نسـيان للقوانـين التأويليَّـة، فالتخلِّي عـن النصـوص معـزوٌّ لفقدِهـا القـدرة عـلى تلبيـة مطالـب المجتمـع.

وبعـد أن تيـسَّر لنـا البحـث في القوانـين التأويليَّـة الَّتـي يمكـن للنـصِّ والثقافـة أن يفرضاهـا عـلى التجربـة السـيميائيَّة للقـارئ حتَّـى تكـون منظَّمـة، أمكننـا التسـاؤل إذا كان القـارئ يسـتطيع معرفـة القوانـين التأويليَّـة الموجـودة في النـصِّ فهـل يسـتطيع معرفـة القوانـين التأويليَّـة الموجـودة في الثقافـة؟ إنَّ هـذا السـؤال يرتبـط بفكـرة أنَّ الثقافـة مرتبطـة بالمـاضي وفاعلـة في الحـاضر ومتطلِّعـة نحـو المسـتقبل، وعليـه فهـل يحتفـظ القـارئ بالمحتـوى الكلِّيّ الثقافـة في ذاكرتـه الفرديَّـة؟ فبحسـب الإجابـة عـن هـذا السـؤال تتحـدَّد مـدى قـدرة القـارئ عـلى الإلمـام بالقوانـين التأويليَّـة للثقافـة.

٣٥ بلمليح، القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة، ٢٥.
٣٦ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 33.
٣٧ أحمامة، "التاريخية الجديدة والنص المخاتل ('البخلاء' نموذجا)،" ٤١.
٣٨ Lotman, Uspensky, and Mihaychuk, "On the Semiotic Mechanism of Culture," 216_ 217.

إنَّ هـذا الطـرح الَّـذي أثرنـاه بالسـؤال والجـواب يجعلنـا نقـترح مفهومًـا لـه اتِّصـال بالكفايـة الموسـوعيَّة وهـو الكفايـة التأويليَّـة، لكـن إذا أعدنـا قـراءة مـا عالجنـاه فيـما سـبق سـنتبين مـن أنَّ الكفايـة التأويليَّـة لا يمكـن أن تتحقَّـق مـن دون كفايـة ثقافيَّـة، فهـذه الأخـيرة نفهمهـا بأنَّهـا قـدرة الإنسـان عـلى التـصرُّف وفـق مـا تمليـه عليـه ثقافتـه.

٥ .القارئ من الكفاية الثقافيَّة إلى الكفاية التأويليَّة:

يقـول يـوري لوتمـان: "باعتبـاري شـخصًا مـن الثقافـة، فإنَّنـي أجسِّـد السـلوك الموصـوف فقـط حسـب بعـض المعايـير. فـإنَّ مـا في سـلوكي يتوافـق مـع هـذه المعايـير، إنَّـه يُعَـدُّ بوصفـه عمـلًا. وفي حالـة الضعـف والمـرض وعـدم الاتِّسـاق، ومـا إلى ذلـك، فأنـا أزيـغ عـن هـذه المعايـير. ثُـمَّ إنَّ هـذا السـلوك ليـس لـه معنـى، ليـس لـه صلـة، ببسـاطة إنَّـه غـير موجـود."[٣٩] نفهـم مـن هـذا القـول أنَّ الإنسـان قابـل للتصنيـف ثقافيًـا انطلاقًـا مـن تصرُّفـه، فهـذا الأخـير يحيـل عـلى ثقافـة مـا مـن خـلال توافقـه مـع معايـير ثقافيَّـة معيَّنـة. لهـذا فالإنسـان يتـصرَّف وفـق مـا أتاحـت لـه ثقافتـه مـن طرائـق وضوابـط. ففـي اللَّحظـة الَّتـي يسـتطيع الإنسـان خلالهـا محـاكاة جماعتـه البشريَّـة في التـصرُّف فإنَّـه يكـون حينهـا مالـكًا الكفايـة الثقافيَّـة. لكـن هـل يكفـي امتـلاك الإنسـان الكفايـة الثقافيَّـة حتَّـى يـؤوِّل النصـوص عـلى نحـو مقبـول في ثقافتـه أو أنَّـه مـن الـلازم أن يمتلـك كذلـك كفايـة تأويليَّـة؟

لقـد تعـرَّض العديـد مـن السـميائيِّين لقضيـة الكفايـة الثقافيَّـة بمسـمَّيات مختلفـة، وكان مـن أهمِّهـم يـوري لوتمـان وأمبرتـو إيكـو. فهـذا الأخـير يعـبِّر عنهـا بالكفايـة الموسـوعيَّة، حيـث يقـول إنَّهـا "تعتمـد عـلى المعطيـات الثقافيَّـة المقبولـة اجتماعيًّـا بسـبب انتظامهـا الإحصائـيّ."[٤٠] ولأنَّ الأمـر يتعلَّـق بالتأويـل فيمكننـا التسـاؤل: هـل كلّ النـاس يؤولـون بالطريقـة نفسـها وبالمسـتوى نفسـه وينتجـون معـانٍ متقاربـة أم أنَّ لهـم طرائـق خاصَّـة في التأويـل ومسـتوى محـدَّدًا ويقترحـون معـانٍ مختلفـةً ومتباعـدةً؟ لا شـكَّ أنَّ تأويـل النصـوص يمكـن عـدَّه مشـكلة تبتغي حـلًّا، ولا يمكـن حلُّهـا إذا لم يكـن القـارئ قـد مـرَّ بمشـكلات مشـابهة. فهـذا الشـرط يجـلي فكـرة التعلُّـم، هنـا نسـتحضر مـا قالـه أمبرتـو إيكـو عـن فهـم العلامـة: "فهـم العلامـة هـو تعلُّـم مـا يجـب القيـام بـه لإنتـاج موقـف

٣٩ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 129.

٤٠ Umberto Eco, Ou La Coopération Interprétative Dans Les Textes Narratifs, traduit de l'italien par. Mariem Bouzaher (Grasset & Fasquelle, 1985), 18.

ملموس بحيث يستطيع الإنسان الحصول على الخبرة الإدراكيَّة المتعلِّقة بالموضوع الَّذي تحيل عليه العلامة."[٤١] إذن، فأمبرتو إيكو يتحدَّث عن الخبرة الإدراكيَّة الَّتي تتمثَّل في معرفة الروابط الممكنة بين العلامة وموضوعها. يحيلنا هذا القول إلى التعريف الجوهريّ الَّذي اقترحه يوري لوتمان للسميائيَّات، يقول: "السميائيَّات هي علم العلامات وأنساق العلامة الَّذي يدرس الخصائص الأساسيَّة لجميع العلامات ومجموعاتها."[٤٢] فمن خلال هذا التعريف، ندرك أنَّ طريق الحصول على معنى النصِّ هو أن يبحث القارئ عن خصائص النصّ قيد التأويل ثُمَّ يقارنها مع ما يوجد في موسوعته، ليدرك الروابط بين النصِّ وخارجه. إذن، فالثقافة تهيِّئُ أفرادها ليصيروا كائنات ثقافيَّةً، فالتشكُّل الثقافيّ للأفراد لا يعني سوى تشكُّل ما يسميه يوري لوتمان بالخبرة السيميائيَّة، والَّتي تعادل مفهوم الكفاية الثقافيَّة من منظوره، ونجده يعبِّر عن هذه الكفاية في قوله: "إنَّ الخبرة السيميائيَّة تسبق الفعل السميائيّ."[٤٣]

ولأنَّ البشر أناس مختلفون فإنَّ الخبرة السيميائيَّة تكون مختلفة، لذلك فإنَّ تأويل النصوص سيصل إلى نتيجة مختلفة باختلاف القرَّاء، لذلك فالمعنى ليس إلَّا وجهة نظر خاصَّة. وتجد هذه الفكرة ما يدعمها في تعريف شارل ساندرس بورس للعلامة، يقول: "العلامة مثل شيء يحلّ محلَّ شيء آخر في نظر شخص ما." [٤٤] إنَّ ذلك الشيء الآخر لا وجود له على النحو المادِّيِّ ولكنَّه موجود على النحو الحسِّيِّ، وتحديدًا على مستوى الذاكرة، والَّتي تتقلَّد مكانة مهمَّة في عمل الثقافة في المجتمع، ذلك أنَّ معرفة الروابط الموجودة بين النصِّ وخارجه الثقافيّ والطبيعيّ عمليَّة تشترط عمل الذاكرة، "إذ لا يمكننا، من دون الذاكرة، أن نحسّ بخبراتنا الطبيعيَّة السابقة."[٤٥] وعمومًا، فإنَّ الكفاية التأويليَّة تتحقَّق بالقدرة على استعمال الذاكرة وتنشيطها، بحيث يستطيع الإنسان ربط النصِّ موضوع التأويل بمجموعة من النصوص داخل الثقافة، وهذه عمليَّة تشترط الذاكرة، وهنا نستحضر أحد التعريفات

٤١ Eco, 42.

٤٢ Y.M.Lotman, Analysis of the Poetic Text, Edited & Translated by. BARTON JOHNSON, 1976, xi.

٤٣ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 124.

٤٤ Umberto, Les Limites de l'interprétation, 48.

٤٥ Umberto Eco, From The Tree to The Labyrinth Historical Studies On The Sign and Interpretation, Translated by. Anthony Oldcornm (London: Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 2014), 544.

المقترحة بخصوص السميائيَّات، وهو أنَّ "السميائيَّات علم يدرس الترابط الوظيفيّ لأنساق العلامة والمتداولة في الثقافة." [٤٦] فالقدرة على دراسة الترابط الوظيفيّ بين العلامات أو النصوص هو أمر يجلي اشتغال الكفاية التأويليَّة.

الخاتمة

إذا كان لا بدَّ أن يعيش الإنسان في مجتمع ما، فإنَّه من اللازم عليه، في إطار ما يفرضه الوجود المشترك، أن يؤوِّل النصوص وفق قوانين تأويليَّة يفرضها التفاعل مع النصِّ والتفكير بما أتاحته الثقافة وشرَّعته له. وممَّا يمكن قوله إضافة في هذه الخاتمة، هو أنَّ في النفس قلقًا أثاره الانشغال الإنسانيّ بالتأويل، وممَّا يمكننا التعبير به عن هذا القلق، هو أنَّ الانتصار لحرِّيَّة التأويل واجبُ كلِّ إنسان؛ ذلك أن التأويل هو روح الحياة الاجتماعيَّة، إذ من خلاله نموقع ذاتنا داخل المسار التاريخيّ والثقافيّ الخاصّ بنا، ونتوقَّع ما يمكن أن يطرأ لنا في المستقبل. لذلك فحرِّيَّة التأويل تعود علينا بمكسب عظيم وهو تجديد التفكير في الثقافة، ومن ثُمَّ يمكن لها أن تحيا وتنتعش. إنَّ التأويل بهذا الأفق الواسع والممتد يمكنه أن يكشف لنا عمَّا نحتاجه في حاضرنا ومستقبلنا، فالإنسان المعاصر تواجهه "العديد من التحدِّيات والتحوُّلات المتنوِّعة. ولم يعد أمام المجتمع سوى أن ينظر في أساس التقدُّم والتطوُّر، لاستشراف ما يخفيه المستقبل بما يحمله من تقدُّم حديث وتطوُّر مفاجئ. وإنَّ التحدِّيات الَّتي تواجه الإنسانيَّة في عصرنا الراهن تسبِّب لإنسان هذا العصر القلقَ وتثير في نفسيَّته الخوف وتجعله كثير التفكير بما يخفيه المستقبل." [٤٧] لكن إذا كنَّا نرى في حرية التأويل بعضًا من الأمان من حيث تحقيق مكاسب معيَّنة، فإنَّنا نرى أنَّ لها وجهًا آخر وهو الخطر الَّذي يمكن أن تجلبه سواء كان القارئ الذي يؤوِّل ويشتغل بحسن نيَّة أو من دونها. وهكذا يكون من اللازم الانتصار في الآن نفسه للتأويل الثقافيّ، ذلك التأويل الَّذي لا يكون إلَّا تأويلًا منظَّمًا لاتِّصافه بالبعد المنطقيّ.

وعليه، فإنَّ تأويل النصوص يجب أن تتاح له الإمكانيَّات الكثيرة حتَّى نحفظ حقوق القرَّاء المؤوِّلين كما يذهب أمبرتو إيكو، لكن يجب على القرَّاء أن يستندوا إلى الثقافة بغية

٤٦ Hong Guo, "A Brief Introduction to and Semiotic Analysis of Lotman's Cultural Semiotics," Editor-in-chief. Yongxiang Wang, Chinese Semiotic Studies 1, no. 1 (2009): 158.

٤٧ بريمي، السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية، ٣٦.

جعلها مصفاة تأويليَّة كما يتصوَّر ذلك يوري لوتمان، وذلك لضبط تدفُّق المعاني والحدّ من المعاني غير المفيدة. لا يجب أن نستهين بالنصوص الأدبيَّة ونقول إنَّها ليست سوى نصوص ترفيهيَّة، لذلك يجب أن نؤمن أن النصوص الأدبيَّة هي الَّتي يمكن أن تحدِّد لنا حاجات الأجيال المستقبليَّة، ممَّا يحتِّم علينا إزاء النصوص الأدبيَّة أن نؤوِّل بحذر. فالنصُّ الأدبيّ "لا يمكن من حيث المبدأ أن يفسِّر بطريقة واحدة فقط، ففي حالة الأدب تتمّ تصفية مجموعة معيِّنة من التأويلات من خلال مجموعة أخرى، وهذا يؤدِّي إلى منافسة جديدة للتأويلات الممكنة وولادة جديدة."[٤٨]

٤٨ Lotman, Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture, 70_ 71.

المصادر.

أحمامة، لحسن. "التاريخية الجديدة والنص المخاتل ('البخلاء' نموذجا)." مجلة النبوغ، العدد١. (٢٠١١).

إيكو، أمبرطو. اعترافات روائي ناشئ.ترجمة سعيد بنكراد. ط٢. المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤.

إيكو، أمبرطو. التأويل بين السيمائيات والتفكيكية. ترجمة سعيد بنكراد. ط٢. الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤.

إيكو، أمبرطو. التأويل والتأويل المفرط. ترجمة ناصر الحلواني. ط١. مركز الانماء الحضاري، ٢٠٠٩.

إيكو، أمبرطو. العلامة تحليل المفهوم وتاريخه. ترجمة سعيد بنكراد. ط٢. الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠١٠.

الحميمة، عبد الله. "إشكالية القراءة من نظرية التلقي إلى التفكيكية." مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد٢.(٢٠١٥).

الدادسي، عبد اللطيف. تجليات إنتاج المعنى المزدوج عند بول ريكور، كتاب جماعي: التأويل بين الفلسفة والأدب. ط١. تطوان: منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٩.

الدغمومي، محمد. تأويل النص الروائي / كتاب جماعي: من قضايا التلقي والتأويل. ط١. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٤.

بريمي، عبد الله. السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية. ط١. الاردن: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٨.

بريمي، عبد الله. مطاردة العلامات بحث في سميائيات شارل ساندرس بورس التأويلية الإنتاج والتلقي. ط١. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦.

بلمليح، إدريس. القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة. ط١. دار توبقال، ٢٠٠٠.

بنكراد، سعيد. السميائيات والتأويل مدخل لسميائيات ش. س. بورس. ط١. الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥.

ريكور، بول. "الوجود والتأويل." ترجمة منذر عياشي. مجلة ثقافات، العدد٢٠٦.(٢٠٠٢).

كوش، دنيس. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. ترجمة منير السعيداني. ط١. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧.

Bellentanti, Federico, and Mario Panico. "Pour Une Approche Sémiotique Des Monuments et Des Mémoriaux." Cygne Noir, En Dialogue Avec l'histoire, no. 6 (2018).

Eco, Umberto. A Theory of Semiotics. (Eng, Trans. Indiana University Press, 1976.

Eco, Umberto.From The Tree to The Labyrinth Historical Studies On The Sign and Interpretation. Translated by Anthony Oldcornm. London: Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 2014.

Eco, Umberto.Ou La Coopération Interprétative Dans Les Textes Narratifs. traduit de l'italien par Mariem Bouzaher. Grasset & Fasquelle, 1985.

Eco, Umberto.Semiotics and the Philosophy of Language. 1st ed. Bloomington First Midland: Indiana University Press, 1986.

Guo, Hong. "A Brief Introduction to and Semiotic Analysis of Lotman's Cultural Semiotics." Editor-in-chief Yongxiang Wang. Chinese Semiotic Studies 1, no. 1 (2009).

Jakobson, Roman. Selected Writings Word and Language. Paris: Mouton The Hague, 1971.

Lorusso, Anna Maria. Cultural Sémiotics for a Cultural Perspective in Semiotics. SEMIOTICS AND POPULAR CULTURE. Palagrave Macmillan, 2015.

Lotman, Y. M. Universe of Mind A Semiotic Theory of Culture. Edited by Ann Shukman. Britain: Indiana University Press, LB. Tauris, 1990.

Lotman, Yu. M, B A Uspensky, and George Mihaychuk. "On the Semiotic Mechanism of Culture." New Literary History 9, no. 2 (July 24, 1978): 211–32. https://doi.org/10.2307/468571.

Lotman, Yu M, Alexander M Piatigorsky, and Ann Shukman. "Text and Function." New Literary History 9, (no. 2 (1978).

Umberto, Eco. Les Limites de l'interprétation. Edited by Myriem Bouzaher. Grasset & Fasquelle, 1992.

Y. M. Lotman. Analysis of the Poetic Text. Edited by BARTON JOHNSON, 1976.